المحاضرة01: نشأة المسرح الجزائري.

تمهيد:

إذا كان المسرح روح الأمة وعنوان تقدمها وعظمتها، ففي فضائه وعلى ركحه تعبر الشعوب عن قضاياها الاجتماعية والسياسية، وترسم أحلامها وتطلعاتها، فإن المسرح العربي في الجزائر يشكل الواجهة الحقيقية لحركة التعريب فيها، بل إنه المشعل الصادق لها، باعتباره أداة شديدة الفعالية في تثقيف الجماهير وتصوير أحوالها وتبادل الحوار مع قضاياها، ولقد أدرك الشعب الجزائري هذه العلاقة الحميمة بينه وبين المسرح فأحبه، وسعى إليه واستقبله، والباحث المسرحي في الجزائر يجد نفسه في مواجهة كثير من الصعوبات خاصة حين يسعى إلى تأصيل هذا الفن، لأن هناك معطيات تاريخية لابد من العروج عليها قبل التعرض للآفاق التي يفتحها المسرح الجزائري في يومنا هذا.

كما يجد الدارس للمسرح الجزائري صعوبة كبيرة في تحديد تاريخ نشأته ومراحل تطوره المتعاقبة، لأنه يرتد حقبا زمنية بعيدة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الذي بقيت آثاره قائمة إلى اليوم، شاهدة على رسوخ وتأصل هذا الفن في الجزائر، ولترد على مزاعم أولئك الذين يرجعون ظهور هذا الفن إلى عهود متأخرة نتيجة التأثر والتأثير.

أولا- مرحلة ما قبل التاريخ:

إن محاولة تأصيل هذا الفن تدفع الباحث إلى أن يضع في اعتباره جملة من المعطيات التي ارتبطت بالمسرح سواء من جانبه التاريخي أو الفني أو الاجتماعي، لارتباط هذه العناصر بعضها ببعض في إعطاء الصورة الكاملة والتامة للمسرح في الجزائر،[i] والذي ارتبط ببداية الإنسان الأولى في عصر ما قبل التاريخ بمختلف أقسامه، ولقد عثر الدارسون على عدد كبير من البقايا العظمية الإنسانية، كما عثروا على كهوف بها عشرات الجماجم تنتمي إلى مجموعة الإنسان العاقل.

واتجه اعتقاد إنسان تلك الحقبة في محاولة زيادة التقرب من القوى الخفية المتحكمة في حياته، والحياة المحيطة به، فبدأ يصور مشاعره في أشكال إنسانية وحيوانية تعبر عن بعض مفاهيمه الأولى كمحاولة منه للوصول إلى الأمان والاطمئنان، وهذه الأمثلة من الاعتقاد سرعان ما تتطور بصورة أكثر وضوحا في المراحل الحضارية التالية، وبصفة خاصة في العصر الحجري الحديث.

ولم يكن هذا الجانب الفكري مقصورا على هذه النواحي فقط، بل إن إنسان هذه المرحلة بدأ في التعبير بالرسم عن أفكاره، مبينا تقدمه الحضاري والمادي والفكري، ومظاهر الصراع بين الإنسان من جهة، والطبيعة والمخلوقات الغيبية التي يعتقد وجودها من جهة أخرى، وهذا الأمر دفعه إلى اختراع ألبسة وأقنعة تشبه أقنعة المسرح وألبسته، وكذا القيام بطقوس مسرحية تعد البذور الأولى للمسرح عند إنسان الجزائر الأول.[ii] وفي هذه الطقوس ما يدل على أن الإنسان الجزائري عرف منذ البداية الأولى بعض المظاهر المسرحية من أقنعة وألبسة وغير ذلك.

ثانيا- مرحلة بداية التاريخ:

إن اتصال البربر بالفينيقيين القادمين من شرق البحر الأبيض المتوسط، نشأ عنه دولة قرطاجية سنة 814 (ق.م)، فبدأ العصر القرطاجي رغم المنافسة اليونانية الحداة التي انتهت بالفشل، ولعل أول ظاهرة يسجلها الدارس لتاريخ هذا المجتمع في العصر القرطاجي هو الامتزاج الواضح بين عدد من العناصر الحضارية، فهناك العنصر القرطاجي الفينيقي الأصل، والعنصر البربري المحلي، والعنصر اليوناني، إضافة إلى العناصر الحضارية المصرية، والقبرصية والإفريقية.. الخ.

ولقد مارس القرطاجيون طقوس ديانتهم في عدد من المعابد، ويدفنون مع موتاهم تماثيل وأقنعة لإبعاد القوى الشريرة، وهذه الأقنعة والمسوخ كانت تمثل أشكالا شيطانية يرتديها الإنسان، أو يضعها في منزله،[iii] وعليه فإن وجود المعابد والكهنة والطقوس الدينية والأقنعة والمسوخ دليل على وجود شكل من أشكال المسرح*، خاصة وأن المسرح ولد من رحم المعابد والطقوس الدينية التي تقام فيها.

ثالثا- مرحلة العهد الروماني:

يرجع كثير من الباحثين المهتمين بشؤون المسرح ظهوره ونشأته في المغرب العربي إلى الفترة الرومانية مستدلين على ذلك بتلك الآثار التي تؤكد وجود مسارح اشتهرت بها مدن رومانية في شمال إفريقيا، وإذ ما اعتمدنا المقولة التي تؤكد وجود الفن المسرحي في تونس خلال الاستعمار الروماني «لوجود العديد من الفضاءات المسرحية بهذه البلاد، كمسرح قرطاج وبلاريجيا و البحم...وغيرها، هو دليل قاطع على وجود هذا النشاط»[iv]، فإن أقطار المغرب العربي كلها مرت بالظروف التاريخية نفسها وتشابهت الأحداث فيها، مما يدعو إلى تعميم مثل هذه الآراء.

والدليل على ذلك أن الجزائر قد عايشت هذه البدايات الأولى لظهور الفن المسرحي بها، حيث عمد الرومان أول تواجدهم إلى «إنشاء عدد كبير من المدن التي شملت كثيرا من المرافق كالمباني الحكومية، والمكاتب، والمعابد، والحمامات والأسواق، والمعابد، وأقواس النصر، والملاعب، والإسطبلات... وغيرها، ولعل أهمها جميعا المسارح نصف الدائرية»[v]، والتي مازالت قائمة حتى يومنا هذا نحو: جميلة، وتيمقاد*، وشرشال، وسكيكدة، وتبسة... وغيرها.

ففي مدينة تيمقاد مثلا أقام الرومانيون مسرحا يتسع لخمسة آلاف متفرج ولقد كانت سياستهم في كل البلاد التي يحتلونها لما عرف عنهم من حب للمسرح وميل للتسلية والترفيه واللهو، ولذلك سرعان ما يبادرون لبناء هياكل لذلك حيث تضمن لهم ولأسرهم الاستقرار والهدوء كالمكتبة والسوق والحمام، وهي مرافق أساسية عندهم والساحات في عهدهم كانت ثلاثة أنواع:[vi]

أ- مسارح لتقديم العروض المسرحية من المآسي والكوميديات.

ب- ملاعب رياضية تشكل ميادين للمصارعة والملاكمة بين المصارعين والحيوانات الضارية.

ج- ميادين الفروسية، تشكل فسحة لألعاب الفروسية وسباق الخيل والعربات.

ثم إنهم عرفوا بالإضافة إلى هذا كثيرا من الطقوس التعبدية، واستعملوا أنواعا من الأقنعة، مما يدل على أنهم كانوا يمارسون نوعا من المسرح، وحمل لهم امتزاجهم بكثير من أجناس العالم وشعوبه –خاصة اليونانيين-

الكثير من ثقافتهم، خاصة المسرح،[vii] وفي ذلك ما يؤكد أن الجزائريين عرفوا أشكالا من المسرح في العهد الروماني وإن لم نحصل على نص درامي واحد يقدم لنا صورة واضحة عن النصوص المسرحية المقدمة في هذه المرحلة.

رابعا- مرحلة الفتح الإسلامي والحكم العثماني:

دخل العرب الفاتحون أرض الجزائر مع بداية القرن الثامن الميلادي، حاملين معهم دينا ولغة وحضارة وفكرا ومنذ أن استوطنوا وهم يعملون بجد على بذر فكرهم وعقيدتهم، وتعميق جذورهما، ووجد الجزائريون أنفسهم آنذاك مرتبطين عن طواعية وتلقائية بهذه الجذور، وهذه المنابع، فاشتد التلاحم وقويت الوشائج، واختلطت الدماء وتشكلت أمة بفكر واحد هو الفكر الشرقي، ولسان واحد هو لسان العرب، وعقيدة واحدة هي عقيدة الإسلام.

ولقد حوى تراث العرب منذ الجاهلية فنونا عديدة منها فن المسرح الذي عرفه العرب خلال المراسيم الأدبية التي كانت تعاصر موسم الحج، أو صور الاحتفالات الدينية للشيعة، والحكواتي ومسرح خيال الظل والقرقوزا...الخ،[viii] ولقد عرف الجمهور الجزائري كل هذا التراث الضخم لأنه تراثه وتراث أجداده، حيث توجد أنشطة شعبية مشابهة للمسرح سواء منها «الأشكال التراثية كالمداح والرواية الشعبية والحلقة والزردة، واحتفالات الأعياد الدينية والمناسبات الفصلية الفلاحية التي كانت تقام على طول شهور السنة كالتويزة وبوغنجة وبوسعدية»[ix]، بمعنى آخر عرف الجزائريون المسرح بعد الفتح الإسلامي عن طريق الممارسة المباشرة أو عن طريق الاطلاع على تراثهم.

لقد ظل الأمر كذلك إلى أن دخلت الجزائر تحت الحماية العثمانية* لتعرف الجزائر أشكالا أخرى من المسرح، فكانت تقدم في الأسواق والساحات العامة، والخيام الخاصة، حيث يصعد إلى المنصة أو الحلقة ممثلون ورواة لحكاية قصصهم بأسلوب مؤثر، وغالبا ما تجمع التبرعات بعد انتهاء هذه القصص،[x] وكان أداؤها «يجمع بين المسرحية أو التمثيلية، والحكاية، أما هدفها فكان أساسا للترفيه الاجتماعي»[xi].

ويذكر عدد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزائر عقب الاحتلال الفرنسي مباشرة أو بعده بسنوات قليلة أنهم شاهدوا عروضا لعرائس القراقوز في الجزائر واستمرت هذه الممارسات ولقيت رواجا كبيرا، حتى منتصف القرن التاسع عشر حين قضى الاستدمار الفرنسي عليها وأقام مسارحه، لتبدأ مرحلة جديدة في حياة الفرد الجزائري غيرت ثقافته وفكره وأدبه بعد ذلك.